المحاضرة الحادية عشر: الأجناس الأدبية من منظور ياكبسون: علاقاتها بضمائر اللغة

مقدمة

يُعدّ رومان ياكبسون (Roman Jakobson) أحد أبرز روّاد البنيوية واللسانيات الحديثة، وقد شكّل فكره نقطة تحوّل في دراسة الأدب من زاوية لغوية خالصة. فبينما ركّزت المناهج الكلاسيكية على المضمون والمحتوى، جاء ياكبسون ليؤسس لمقاربة علمية للأدب تنطلق من وظائف اللغة وبنيتها الداخلية، وترى أن الأجناس الأدبية ليست مجرد قوالب تعبيرية، بل هي أنماط تواصل لغوي تختلف تبعاً لعلاقات المرسل والمخاطَب والرسالة.، ومن هنا، تنفتح نظرية ياكبسون على صلة عميقة بين الأجناس الأدبية وضمائر اللغة (أنا، أنت، هو)، أي بين الشكل اللغوي وموقع الذات المتكلمة.

أولاً: ياكبسون واللسانيات البنيوية

قبل أن نخوض في علاقة الأجناس الأدبية بضمائر اللغة، من الضروري أن نلمّ بالإطار النظري العام الذي وضعه ياكبسون في اللسانيات:

.1مفهوم التواصل اللغوي

يرى ياكبسون أن كل فعل لغوي يتكوّن من ستة عناصر أساسية:

العنصر	الوظيفة اللغوية	التوضيح
المرسل الوظيفة	التعبيرية	ما يكشف عن مشاعر المتكلم وموقفه
المرسل إليه	الوظيفة الإفهامية أو الندائية	ما يستهدف التأثير في المتلقي
الرسالة	الوظيفة الشعرية أو الجمالية	تنظيم اللغة بهدف الجمال والإبداع
المرجع	الوظيفة المرجعية	الإشارة إلى الواقع الخارجي
القناة الوظيفة	الاتصالية	المحافظة على الاتصال بين المتكلم والمستمع
الشفرة (الكود)	الوظيفة الميتالغوية داخل اللغة نفسها	توضيح اللغة أو معناها

انطلاقاً من هذا النموذج، يرى ياكبسون أن كل جنس أدبي يركّز على وظيفة لغوية معينة دون غيرها، ويمنحها الأولوية في عملية التواصل الأدبي.

ثانياً: تصنيف الأجناس الأدبية وفق وظائف اللغة

من خلال الربط بين النموذج الاتصالي والأنواع الأدبية، يمكن تحديد ثلاثة أجناس رئيسية عند ياكبسون، تتقاطع مع التراث الأرسطي (الملحمي، الغنائي، الدرامي)، ولكن بمنظور لغوي حديث.

.1النوع الغنائي(Lyrical Genre)

الوظيفة	الضمير الغالب:	السمات:
المهيمنة: التعبيرية(Expressive Function)	"أنا"	يتمركز الخطاب حول الذات المتكلمة.

اللغة تُستخدم للتعبير عن الانفعال الداخلي والمشاعر الذاتية.، لذا فالشعر الغنائي هو أوضح مثال، إذ يُعدّ "أنا الشاعر" محور الرسالة.

مثال: قول الشاعر:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

هنا الضمير "أنا" يحدد طبيعة الجنس الغنائي، فالرسالة موجهة من الذات إلى العالم، دون الحاجة إلى حوار أو سرد خارجي.

.2النوع الدرامي(Dramatic Genre)

الوظيفة	الضمير الغالب:	السمات:
الإفهامية أوالندائية (ConativeFunction)	"أنت"	الخطاب قائم على الحوار والمخاطبة.

كل قول هو توجّه نحو الآخر (الجمهور أو شخصية أخرى) النص الدرامي يُبنى على التفاعل اللغوي بين "أنا" و"أنت."

مثال:

قف، لا تقل لي إنك راحل! ما زال في العيون حديث لم يُقل.

هنا الخطاب يتوجه مباشرة إلى مخاطب مفترض، فتتحول اللغة إلى فعل تواصلي حيّ، وهو جوهر الدراما عند ياكبسون.

.3النوع السردي أو الملحمي(Epic/Narrative Genre)

الوظيفة	الضمير الغالب:	السمات:
المرجعية (Referential Function)	"هو"	الراوي ينسحب خلف الحكاية

اللغة تحاول أن تحاكي العالم الخارجي وتنقله بموضوعية، لذا فإن الشخصيات والأحداث تُقدَّم من وجهة نظر خارجية.

مثال: خرج البطل مع طلوع الفجر، ولم يكن يعلم ما ينتظره وراء الجبال.

الخطاب هنا لا يتجه إلى "أنا" أو "أنت"، بل إلى واقع يُروى بضمير الغائب، وهو ما يجعل السرد جنساً "موضوعياً" في مقابل الغنائية الذاتية والدرامية الحوارية.

ثالثاً: علاقة الأجناس الأدبية بضمائر اللغة

من خلال هذا التقابل، تتأسس علاقة وثيقة بين ضمائر اللغة والأنواع الأدبية عند ياكبسون:

الضمير	الوظيفة اللغوية	الجنس الأدبي	طبيعة الخطاب
أنا	التعبيرية	الغنائي ذاتي،	داخلي انفعالي،
أنت	الندائية	الدرامي حواري،	تفاعلي
هو	المرجعية	السردي / الملحمي	موضوعي، حكائي

بهذا المعنى، يُصبح كل ضمير محوراً لبنية نوعية في الخطاب الأدبي، ويعبّر عن زاوية نظر مختلفة للعالم:

"أنا" = ذات تتكلم عن نفسها (الوجدان).

"أنت" = ذات تتخاطب مع آخر (الحوار).

"هو" = ذات تروي عن آخر (السرد).

رابعاً: القيمة النقدية لهذا التصور

يمثل تصور ياكبسون نقطة تحول في فهم الأنواع الأدبية لأنه:

.1حوّل النقاش من المضمون إلى الوظيفة اللغوية، أي من "ماذا يقول الأدب؟" إلى "كيف يقول؟."
.2ربط بين علم اللغة والأدب، فصار يمكن دراسة الشعر والدراما والسرد بأدوات اللسانيات.
.3كشف عن البنية التواصلية في الأدب: فكل نص أدبي هو في جوهره عملية تواصل بين ذات وموضوع وجمهور.
.4مهّد لظهور السيميائيات الأدبية، إذ صار الأدب نظام علامات تُقرأ في ضوء علاقاتها التواصلية.

خامساً: امتدادات فكر ياكبسون في النقد الأدبي الحديث

تأثر عدد من النقاد بهذا التصور، ومنهم:

- ✓ تودوروف: الذي طوّر فكرة النوع الأدبي كـ"عقد تواصلي" بين الكاتب والقارئ.
- ✓ نورثروب فراي: الذي ربط الأنواع الكبرى بأنماط خيالية وأسطورية، مكملًا البعد الوظيفي عند ياكبسون.
- ✓ ميخائيل باختين: الذي ركّز على "تعدد الأصوات" في الرواية، وهو امتداد لتحليل الضمائر والعلاقات الحوارية.

الخاتمة

إنّ رومان ياكبسون قد قدّم من خلال نموذجه الاتصالي تصوراً عميقاً للأجناس الأدبية يربط اللساني بـ الأدبي. فالنصوص تختلف لا بمحتواها فقط، بل بوظيفتها اللغوية وبالضمير الذي يحكمها، فالشعر الغنائي يتحدث بلسان "أنا"، والمسرح يخاطب "أنت"، والرواية تحكي عن "هو"، وهكذا، يصبح الأدب عند ياكبسون حواراً دائماً بين الضمائر الثلاثة التي تشكّل الوعي الإنساني: الذات، الآخر، والعالم.